محور الطبيعة

تأهيلة أساسي

غُرُوبُ الشَّمْسِ .

فِي أَصِيلِ يَوْمٍ صَافٍ اتَّخَذْتُ مَجْلِسِي عَلَى الشَّرْفَةِ، وَرُحْتُ أَنْقُلُ الْبَصَرَ فِي الْفَضَاءِ الرَّحِيبِ وَأُرَقِّبُ الشَّمْسَ وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا نَحْوَ آخِرِ الْأُفُقِ تُوَدِّعُ بِشُعَاعِهَا الذَّهَبِيِّ، وَتُلْقِي عَلَى الدُّنْيَا آخِرَ نَظَرَاتِهَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْهَادِئِ. السَّاحِلُ أَمَامِي يُشْبِهُ سَهْلًا أَزْرَقَ فَسِيحًا، تَتَهَادَى عَلَى سَطْحِهِ الْأَمْوَاجُ الْخَفِيفَةُ، وَالنَّسَمَاتُ النَّدِيَّةُ تُدَاعِبُ كُلَّ شَيْءٍ: الْبُيُوتَ وَالْأَشْجَارَ، وَالْأَزِقَّةَ وَالشَّوَارِعَ، وَكَأَنَّهَا تَحْتَفِلُ بِغِيَابِ رَبَّةِ الْبَهَاءِ. وَأَسْرَابُ الطُّيُورِ تَقْفِلُ عَائِدَةً مِنْ رِحْلَاتِهَا الْبَعِيدَةِ بَعْدَ نَهَارٍ طَوِيلٍ قَضَتْهُ فِي الْبَحْثِ عَنْ حَبَّاتِ الْقَمْحِ الْمُتَنَاثِرَةِ فِي الْحُقُولِ لِتُطْعِمَ صِغَارَهَا أَوْ عَنِ الْأَعْوَادِ الْيَابِسَةِ لِتَبْنِيَ بِهَا مَأْوَاهَا. وَالْعُمَّالُ الْمُرْهَقُونَ يَعُودُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانًا، وَآثَارُ الْحُقُولِ وَالْمَصَانِعِ بَادِيَةٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ.

بَدَأَ قُرْصُ الشَّمْسِ يَهِيلُ نَحْوَ حَافَةِ الْأُفُقِ، وَيَقْتَرِبُ رُوَيْدًا مِنْ صَفْحَةِ الْبَحْرِ الزَّرْقَاءِ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ فَأَصْبَحَ أُرْجُوَانِيًّا بَعْدَ أَنْ كَانَ وَهَّاجًا شَدِيدَ الْإِضَاءَةِ. وَصَارَ أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِدِينَارٍ ذَهَبِيٍّ كَبِيرٍ يُومِضُ وَيَلْتَمِعُ مِنْ آخِرِ الْأُفُقِ.

مَا أَجْمَلَ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الَّتِي تَبْدَأُ فِيهَا جُيُوشُ الظَّلَامِ بِالزَّحْفِ، وَتَأْخُذُ جُيُوشُ النَّهَارِ بِالِانْهِزَامِ، إِنَّهَا لَحَظَاتٌ تُسَيْطِرُ فِيهَا الْحَرَكَةُ الَّتِي يَعْقُبُهَا سُكُونٌ جَمِيلٌ، وَارْتِيَاحٌ شَامِلٌ.

الْآنَ بَدَأَتْ طَلَائِعُ الظَّلَامِ تَحْتَلُّ الْمَدِينَةَ وَشَوَارِعَهَا وَهَضَابَهَا، صَاعِدَةً نَحْوَ السُّفُوحِ وَمُتَسَلِّقَةً أَكْتَافَ الْجِبَالِ وَقِمَمَهَا لِتَطْرُدَ مِنْهَا بَقَايَا أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُنْسَحِبَةِ. وَفِي نِهَايَةِ الْأُفُقِ رَاحَتِ الشَّمْسُ الْغَارِبَةُ تَقْتَرِبُ مِنْ سَطْحِ الْبَحْرِ، وَحَوْلَهَا هَالَةٌ أُرْجُوَانِيَّةٌ رَائِعَةٌ

تُوشِي بِاللَّوْنِ الأَحْمَرِ نُسْخَةً كَبِيرَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَتَجْعَلُ النَّاظِرَ إِلَيْهَا كَأَنَّهُ أَمَامَ لَوْحَةٍ خَبَّأَ رَسَمَتْهَا يَدُ فَنَّانٍ مُبْدِعٍ.

وَالآنَ أَصْبَحَ لَوْنُ السَّمَاءِ دَاكِنًا، وَاخْتَفَى اللَّوْنُ الأَزْرَقُ الدَّوْرِيُّ، وَبَدَأَتْ بَعْضُ النُّجُومِ تَلْمَعُ فِي أَطْرَافِهَا، فَقُمْتُ مِنْ مَجْلِسِي وَأَنَا مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ بِمَنْظَرِ الغُرُوبِ الجَمِيلِ.